الوعود الثلاثة

فى تاريخ فلسطين

وعد الله — وعد تورش — وعد بلفور

هل التاريخ يعيد نفسه ؟

الأستاذ عيسى السفرى

إذا وقع حدث تاريخى هام ، ثم تكرر وقوع هذا الحدث ، أو ما يشبهه ، بعد مدة من الزمن[1] قالوا : « إن التاريخ يعيد نفسه »

ومن يراجع التاريخ ، قديمه وحديثه ، يجد إن الوعود الثلاثة التى حصل عليها اليهود بالعودة إلى فلسطين كانت كلها متشابهة بأسبابها ونتائجها .

فهل كان ما حدث من قبيل الصدف ؟ . أم أن هناك عوامل غائية جعلت التاريخ يعيد نفسه ثلاث مرات متوالية ؟ . هذا ما نجد الجواب عليه فى البحث التاريخى الآتى :

١ — وعد الله

(١) تمهيد: اليهود قبيلة سامية هاجرت (بزعامة ابراهيم) من أور[1] الكلدانيين فى العراق سنة ١٩٢١ق. م بضغط من سكانه وتوطنت فلسطين أرض الكنعانيين[2] . ولكن الكنعانيين قاوموهم وأجاعوهم فاضطروا للهجرة إلى مصر . واضطهدهم المصريون بدورهم وأذلوهم فأجبروهم على العودة إلى فلسطين بقودهم موسى النبى . وكان ذلك سنة ١٤٩١ ق. م

وتاه بهم موسى فى برية سيناء أربعين سنة ليقضى على جرثومة الذل التى تأصلت فى نفوسهم ، ويجعلهم مستعدين لفتح فلسطين . وعبثاً كانت محاولته هذه ، فقد تمردوا عليه وأبوا أن يدخلوا فلسطين ، ذلك بأن فيها قوماً جبارين (هم الفلسطينيون)

« ياقوم ادخلوا الأرض المقدسة التى كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين . قالوا يا موسى إن فيها قوماً جبارين ، وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها ، فإن يخرجوا فإنا داخلون ... » « قالوا يا موسى إنا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها . فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون[3] »

وهكذا اضطر موسى أن يذهب بهم إلى فلسطين عن طريق

(١) أور : كلمة كلدانية معناها مدينة .

(٢) كنعان معناها بالعبرية الأراضى المنخفضة ، وكانت مساكنهم على وقد هاجروا من جزيرة العرب سنة ٣٥٠٠ ق. م

(٣) سورة المائدة آيات ٢٠ و ٢١ و ٢٣

(١) المدة : للمدار من الزمن يقع على القليل والكثير .

بينها إلا اتفاق الوزن والقافية . هذه كلها وجوه لما لحق الشعر الجاهلى من زيادة وحذف وتغيير . ثم لا ننسى أن من الرواة من كان يتعمد الحذف والتغيير . ودليلنا على هذا قلة ما نلقاه فيما لدينا من الشعر من أسماء الآلهة الجاهلية ، وهى آلهة كانت تشغل جانباً من حياة الجاهليين ، وكان لها صدى ولا شك فى أشعارهم . ثم هناك من الرواة من كان يُصلح ما يصل إليه من أشعار ، ويزيد عليه مُكمِّلا . هذا إلى ما يقوله ابن سلام (ص ٢٢) من أنه لما راجعت العرب رواية الشعر وذكر أيامها ومآثرها ، استقل بعض العشائر شعر شعرائهم وما ذهب من ذكر وقائعهم ؛ وكان قوم قلت وقائعهم وأشعارهم ، وأرادوا ان يلحقوا بمن له الوقائع والأشعار ، فقالوا على ألسن شعرائهم . وأخيراً نصل إلى من كان يقصد الخداع من الرواة ، فكان ينحل شعره الشعراء القدماء ، ليشتهر بين الناس بكثرة الرواية ؛ ويقول فى هذا ابن سلام (ص ٢٢ — ٢٣)

« ... ثم كانت الرواة بعد ، فزادوا فى الأشعار . وليس يشكل على أهل العلم زيادة ذلك ولا ما وضع المولدون ، وإنما عضل بهم أن يقول الرجل من أهل بادية من ولد الشعراء أو الرجل ليس من ولدهم ، فيشكل ذلك بعض الإشكال » . فهذه وجوه أخرى لما لحق الشعر الجاهلى من زيادة وحذف وتغيير وانتحال .

* * *

هذه صورة للرواية العربية قبل عصر حماد وفى أثناء عصره ؛ جهدنا أن تكون واضحة الخطوط ، بينة اللامح ، صادقة التعبير . وهى صورة ستعيننا دون ريب على تفهم رواية حماد الخاصة به ، وعلى بحثها البحث الصحيح القائم على أسس صحيحة ، وعلى الخروج من هذا بالنتائج الصحيحة التى إنما نكتب هذا البحث فى سبيل بلوغها .

(للبحث بقية)

السيد يعقوب بكر

الجنوب الشرق لينتحاشى بأس الفلسطينيين سكان الساحل .

وصعد موسى إلى جبل نبو قبالة أريحا فأراه الرب أرض فلسطين وقال له :

« هذه هي الأرض التي أقسمت لإبراهيم وإسحق ويعقوب قائلا لنسلك أعطيها ، قد أريتك إياها بعينيك ولكنك إلى هناك لا تعبر[1] .

٢ — وهو الله

ومات موسى ، فتسلم يشوع بن نون القيادة من بعده . ونفذ (يهوه)[2] وعده على يد يشوع[3] . وفيما يلي نص هذا الوعد :

عبدي يشوع

قم الآن واعبر هذا الأردن أنت وكل هذا الشعب إلى الأرض التي أنا معطيها لهم أي لبني إسرائيل . كل موضع تدوسه بطون أقدامكم لكم أعطيته كما كلمت موسى ، من البرية ولبنان هذا إلى النهر الكبير نهر الفرات . تشدد وتشجع لأنك أنت تقيم لهذا الشعب الأرض التي حلفت لآبائهم أن أعطيهم[4]

في الشهر الأول من السنة ٢٥٥٤ للخليقة[5] (...)

فكان هذا أول وعد أعطى لليهود بالعودة إلى فلسطين .

* * *

وكانت أوامر يشوع لجيشه ، عند ما فتح أريحا ، شديدة قاسية ، فقد حرّموا كل ما في المدينة من رجل وامرأة ، من طفل وشيخ ، حتى البقر والغنم والحمير بحد السيف . وأحرقوا المدينة بالنار مع كل ما فيها[6]

وهذه القسوة الوحشية في الفتح جعلت الكنعانيين وغيرهم من السكان يحقدون على اليهود الناصبين ، ويتربصون الفرص للايقاع بهم . ومن حسن حظ اليهود ، لا بل من سوء حظ فلسطين ، أن كان الكنعانيون في أواخر مجدهم وسلطانهم ، فمكن ذلك اليهود من الاستقرار إلى حين في فلسطين .

على أن استقرار اليهود في فلسطين لم يزد على ٦٤٥ سنة ، كانوا خلالها عرضة لنزوات أهل البلاد ، الكنعانيين في الداخل والفلسطينيين في الساحل . ثم دب الخلاف بينهم فانقسموا إلى فئتين : مملكة إسرائيل وقصبتها السامرة (نابلس) ، ومملكة يهوذا وقصبتها أورشليم (القدس) ولم تتعد حدود هاتين المملكتين المنطقة الجبلية في فلسطين كلها ...

* * *

ولم يفعل اليهود المستقيم في عيني الرب ، فتركوا عبادته وعبدوا تماثيل مسبوكة للبعليم[1] وذبحوا لها . حتى أن جميع رؤساء الكهنة والشعب أكثروا الخيانة حسب كل رجاسات الأمم ، ونجسوا بيت الرب الذي قدسه في أورشليم[2] ، وكانوا يهزأون برسل الله ، ورذلوا كلامه ، وتهاونوا بأنبيائه[3] ، وأساءوا إلى الله الذي أحسن إليهم الإحسان كله ! ... وهو الذي أخرجهم من أرض مصر من بيت العبودية ، وأنزل عليهم المن والسلوى ، وجعلهم أمة بين الأمم .

وكانت أعمال اليهود المنكرة مثاراً لغضب الله . فأظهر شلمناصر ملك أشور على مملكة إسرائيل سنة ٧٢١ ق . م فأبادها وسبى شعبها إلى مملكته . كما أظهر نبوخذ نصر ملك بابل (بعد ذلك) على مملكة يهوذا سنة ٥٨٨ ق م فأبادها وقتل مختاري اليهود بالسيف في بيت مقدسهم ، ولم يشفق على فتى أو عذراء ، أو شيخ أو أشيب . وأحرق بيت الله وهدم سور أورشليم ، وأحرق جميع قصورها بالنار ، وأهلك جميع آنيتها الثمينة ، وسبى الذين بقوا من السيف إلى بابل ، فكانوا له ولبنيه عبيداً[4] ...

وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباؤا بغضب من الله ، ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ، ويقتلون النبيين بغير الحق ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون[5]

وهكذا كانت إرادة الله باليهود الذين اختارهم (كما تقول التوراة) من دون شعوب الأرض ليكونوا شعباً له مختاراً ، وبإرادته هذه انتهى الفصل الأول من رواية الوطن القومي اليهودي في فلسطين!

٣ — وهو فورس

دام السبي البابلي مدة ٧٠ سنة . ثم ورث قورش ملك الفرس إمبراطورية الكلدانيين ، فأخذ اليهود ينوحون ويبكون ، يرجون ويستعطفون ، ويطلبون العودة إلى فلسطين ! .

(١) سفر التثنية ٣٤ : ٤ (٢) يهوه : إله إسرائيل

(٣) أعطى هذا الوعد لابراهيم ونفذ في زمن يشوع

(٤) سفر يشوع ١ : ٢ و٣ و٤ و٦

(٥) الموافقة لسنة ١٤٥٠ ق.م

(٦) كتاب فلسطين العربية بين الانتداب والصهيونية لصاحب هذا المقال ص ٦٨ .

(١) البعليم بالعبرية جمع بعل أصنام أو سلطون أو آلهة زور .

(٢) هو الهيكل الذي بناه سليمان في القدس سنة ١٠١٢ ق . م .

(٣) سفر أخبار الأيام الثاني ٣٦ : ١٤ و١٦ .

(٤) » » » ٣٦ : ١٧ — ٢٠ .

(٥) سورة البقرة الآية ٦٠ .

ولسياسة موضوعة ... صار قورش المجوسي من المؤمنين بإله إسرائيل ! ... فأطلق نداء في كل مملكته ، في السنة الأولى لملكه ، فقال :

« إن الرب إله السماء قد أعطاني ممالك الأرض ، وهو أوصاني أن أبني له بيتاً في أورشليم التي في يهوذا . فمن منكم من جميع شعبه الرب معه وليصعد[1] »

ومات قورش فخلفه أرتحشستا ، وهذا ثبت وعد قورش كتابة بالتصريح الآتي وهذا نصه :

من أرتحشستا ملك الملوك إلى عزرا الكاهن كاتب شريعة السماء قد صدر مني أمر أن كل من أراد في مملكتي من شعب إسرائيل وكهنته واللاويين أن يرجع إلى أورشليم فليرجع ، وأن يبنى بيت الرب إله إسرائيل . وليعلم أن جميع الكهنة واللاويين والمغنين والنثينيم[2] وخدام بيت الله هذا لا يؤذن أن يُلقى عليهم جزية أو خراج أو خفارة[3] .

في السنة السابعة للملك (٥٢٩ ق. م) (التوقيع)

فكان هذا ثاني وعد أعطي لليهود بالعودة إلى فلسطين .

* * *

عاد اليهود إلى فلسطين ، بحسب منطوق هذا الوعد متحدين إرادة الله وإرادة سكان البلاد . وبنوا الهيكل ورمموا أسوار المدينة (القدس) فكانوا باليد الواحدة يعملون العمل ، وبالأخرى يمسكون السلاح[4] .

وكتب زعماء البلاد ، سنبلط الحوروني وطوبيا العبد العموني وجشم العربي ، إلى الملك محتجين وقائلين :

« فتش في سفر أخبار آبائك فتجد في سفر الأخبار وتعلم أن هذه المدينة مدينة عاصية ومضرة للملوك والبلاد ، وقد عملوا عصياناً في وسطها منذ الأيام القديمة ، لذلك أُخربت هذه المدينة . ونحن نُعلم الملك أنه إذا بُنيت هذه المدينة وأكملت أسوارها لا يكون لك عند ذلك نصيب في عبر النهر[5] ... »

وهكذا قام أصحاب البلاد بالواجب عليهم محذرين مملكة فارس من نتائج هذه السياسة ! ...

مرت سنون ، تناوب الحكم في فلسطين اليونان والرومان[6] وظلت المدينة عاصية ، بالرغم مما عمله بيلاطس البنطي (عامل رومة على فلسطين) لليهود . فقد شيد بعض الحمامات في السامرة (نابلس) وجلب الماء الكافي إلى أورشليم (القدس) من الينابيع الموجودة جنوبي المدينة : وأنشأ طريقين يؤديان إلى القدس من الشمال ومن الشرق ، فنشطت حركة التجارة وحركة الحجاج ، وهما مورد لا يستهان به لزيادة الدخل[1] .

وأعمال كهذه يقوم بها بيلاطس لخدمة اليهود تستحق منهم أن ينصبوا له تمثالا ! ... وفوق هذا كله فإن بيلاطس التمس[2] لم يسمح له قيصر بأن تنشب ثورات عنده ، وهو في الوقت ذاته ممنوع من مكافحة التحريضات التي يقوم بها اليهود في الجليل[3] .

أما أشر المحرضين فلم يكونوا الكهنة ولا رجال الشرع أنفسهم ، وإنما كانوا الشبان الكثيري الإدعاء ، ممن يحضرون خطبهم ومحاضراتهم . هؤلاء هم الذين يبثون في الجمهور العادي روح التمرد والشغب[4] إنهم يهددون رومة وفي الوقت نفسه يساومون ! ... وقد علقوا لوحات ونشرات كثيرة على أسوار (أنطونيا) كتبت عليها جمل تحريضية فيها تشهير ببيلاطس وقيصر[5] .

(٥) خراب ودمار : وتمادى اليهود في تمردهم وشغبهم حتى يئست حكومة رومة من إيجاد علاج لهذه الحالة . فأرسلت (تيطى) القائد الروماني سنة ٧١ ميلادية ، فحاصر القدس ثم هدمها وهدم الهيكل إلى أساساته . فهلك من اليهود مليون ومائة ألف نفس بالجوع والنار والسيف ، ونحو ٩٧ ألفاً بيعوا كعبيد ، ما عدا جموعاً لا تحصى هلكت في أماكن أخرى في اليهودية[6] ، وتم بذلك قول المسيح عليه السلام :

« يا أورشليم يا أورشليم ، يا قاتلة الأنبياء ورجامة المرسلين إليها . كم مرة أردتُ أن أجمع أولادك كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحيها ولم تريدوا . هو ذا بيتكم يُترك لكم خراباً[7] » .

وهكذا كانت إرادة الله ، وبإرادته هذه انتهى الفصل الثاني من رواية الوطن القومي اليهودي في فلسطين ! ...

٣ — وعد بلفور

ظل اليهود بعد ضربة تيطى مشتتين في بقاع الأرض ، وحل

(١) سفر أخبار الأيام الثاني ٣٦ : ٢٣ .
(٢) النثينيم : الموهوبون أو المبطون .
(٣) عزرا ٧ : ١٢ و١٣ و٢٤ .
(٤) سفر نحميا ٤ : ١٧ . (٥) سفر نحميا ٢ : ١٩ .
(٦) فلسطين العربية بين الانتداب والصهيونية الصاحب عنا المقال ص ٦٧

(١) رسائل بيلاطس البنطي ص ٢٧ .
(٢) يقوم مقامه اليوم المندوب السامي .
(٣) و(١) و (٥) رسائل بيلاطس البنطي ص ٢٦ و ١٠٦ وأنطونيا قصر بيلاطس البنطي
(٦) يوسيفوس المؤرخ اليهودي الشهير .
(٧) متى ٢٣ : ٣٧ و ٣٨ .

الحكم العربي محل الحكم الروماني سنة ٦٣٧ م . وقد فتحوا هذه البلاد فتحاً إنسانياً عادلا . تدل عليه الوصية الخالدة التالية[١]:

« لا تخونوا ولا تغدروا ، ولا تغلوا ولا تمثلوا . ولا تقتلوا طفلا ولا شيخاً كبيراً . ولا تقهروا نخلا وتحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً . وسوف تمرون بأناس قد فرّغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرّغوا أنفسهم له »

وهكذا كان الحكم العربي (الذي دام مدة ٨٨٠ سنة) نعمة كبرى للناس وبخاصة اليهود قلدت به أعناقهم . ثم انتقل الحكم إلى الأتراك العثمانيين سنة ١٥١٧ ميلادية ، وكان العرب شركاء لهم في الحكم مدة ٤٠٠ سنة[٢]

* * *

وفي سنة ١٩١٧ احتل الإنكليز فلسطين وقام اليهود بالتجربة القاسية للمرة الثالثة . والسياسة موضوعة ... أصبح الإنكليز القيمين على راحة اليهود وطمأنينتهم ، فأعطوهم وعداً بالهجرة إلى فلسطين هذا نصه :

عزيزي اللورد روتشلد

يسرني جداً أن أبلغكم بالنيابة عن حكومة جلالة الملك بأن حكومة جلالته تنظر بعين الرضى إلى إنشاء وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين ، وتبذل الجهود في سبيل ذلك . على أن لا يجري شيء يضر بالحقوق الدينية والمدنية لغير اليهود في فلسطين ، أو يضر بما لليهود من الحقوق والمقام السياسي في غيرها من البلدان الأخرى .

اللورد بلفور
وزير الخارجية البريطانية

في ٢ تشرين الثاني سنة ١٩١٧

وهكذا اختلف الناطقون بهذا الوعد باختلاف المكان والزمان . فمن وعد ينطق به الله ، إلى وعد ينطق به ملك ، إلى وعد ينطق به وزير ... وهو ثالث وعد أعطى لليهود بالعودة إلى فلسطين . .

وطمع اليهود بعد ذلك في الوطن القومي بفلسطين كلها ... واحتج العرب أصحاب البلاد على ذلك ، وأنذروا بريطانيا من عواقب هذه السياسة الخاطئة .

وازداد تمرد اليهود وتحديهم لسلطة لندن حتى اعتدوا على رجالاتها المسئولين بالقتل والإرهاب[١] وأتلفوا الكثير من دوائر الحكومة وممتلكاتها ، ونسفوا مراكز البوليس بالديناميت ، وأتلفوا خطوط السكك الحديدية ، وتحدوا القانون بتهريب مهاجريهم غير الشرعيين ... واعتداءاتهم المتواصلة على رجال الأمن ، دون أن يسمح لهم بأن يطلقوا النار على المعتدين حتى ولو قتل هؤلاء إخوانهم[٢] ووزعوا المنشورات التحريضية المختلفة ، فيها تشهير بحكومة فلسطين وسلطة لندن !

وكما تحدى اليهود الإنكليز وأساءوا إليهم ، كذلك تحدوا العرب في عقر دارهم بالسلاح وأساءوا إليهم ، وهم الذين أووهم في بلادهم وكانت إمبراطوريتهم الواسعة فيما مضى الملجأ الوحيد لهم من الاضطهاد اللاساعي الذي أثاره عليهم الغرب !...

والإنكليز هم الذين مكنوا اليهود في فلسطين ، وألقوا مقاليدها التجارية والمالية والاقتصادية بين أيديهم . وهم الذين سهلوا لهم (بجميع الطرق) استملاك الأراضي في فلسطين لاستقرار مهاجريهم الشرعيين وغير الشرعيين فيها ، ووقفت جميع أسلحتها لحمايتهم ، وسخرت بوليسها لسماع أباطيلهم ! ...

وكان الواجب على اليهود أن يقبّلوا اليد التي أحسنت إليهم — لا أن يحاولوا قطعها ، وأن يشكروا العرب جزيل الشكر على تمكنهم إلى الآن بأهداب الصبر الجميل ! . .

وما أشبه ثورة اليهود على الإنكليز اليوم بثورتهم على الرومان في الماضي . والعالم أجمع يتجه بأبصاره نحو فلسطين ، ويرقب باهتمام نهاية الفصل الأخير من هذه الرواية المحزنة التي يلذ لرجال السياسة إعادة تمثيلها للمرة الثالثة !

والناس يتساءلون عن التاريخ هل يعيد نفسه ؟ .... وهل يؤدي وعد بلفور إلى نفس النتيجة التي أدى إليها وعد الله ووعد قورش ؟ ...

إن النتيجة لا تزال في ضمير الزمن ، والمستقبل القريب أو البعيد هو الذي سيقول ، في الوطن القومي اليهودي ، كلمته الفاصلة ! وإرادة الله فوق الجميع ! ...

(يافا)

عيسى الناعوري

---

(١) هي وصية الخلفاء الراشدين للقواد — ابن الأثير . قابلها بوصية يشوع بن نون !

(٢) فلسطين العربية بين الانتداب والصهيونية لصاحب هذا المقال ص ١٢ .

(١) أطلقوا النار على خيمة المندوب السامي السير هارولد مكمايكل في القدس بتاريخ ٨ آب سنة ١٩٤٤ بقصد اغتياله . وقتلوا اللورد موين في القاهرة بتاريخ ٦ تشرين الثاني سنة ١٩٤٤ .

(٢) سؤال أثاره في البرلمان اللورد ونترتون . قابله هنا بما كان يشكو منه بيلاطس البنطي .